الحلقة الواحدة والثلاثون

(1) (خالد والأسير في مقر لسان الحال)
الأسير: ألم تصلك رسالة من جلنار تنبئك بعودتها؟
خالد: بت بعد مرور ثلاثة أشهر على غيابها أشك في عودتها.
الأسير: انها على ذمتك، ولك حقوق عليها!
خالد: ليس لي دالة عليها.. لقد اشترط علي عمها أن لا أغادر استنبول حين طلبت يدها للزواج.. أخللت بالشرط في رغبتي في البقاء في لبنان.. قالت لي يوم سافرت "سأنتظرك هناك!"
الأسير: وهل هذا تهديد؟
خالد: ان باقي الجملة تعني أنني سأنتظرك حتى تغير رأيك، وتعود الى ما كنت عليه، أما اذا انتظرتك ولم تأت فهو الطلاق..
الأسير: أنا لم أعرف امرأة تشترط مثل هذا على زوجها وتضعه في وثيقة الزواج..
خالد: ليست هي التي فعلت بل عمها كمال باشا.. انه وصي عليها، وهو بمثابة والدها.. لا يريد لها أن تغترب وتنفصل عن بيئتها.. انني لم أراسلها لأنني لم أجد عملا حتى الآن.. كان من الممكن أن تستجيب لعاطفتها لأنني أعلم أنها تحبني كما أحبها..
الأسير: ولماذا تبقى هنا ان كنت تحبها؟ أتحسب أننا أكثر أمانا هنا؟
خالد: كرهت البقاء هناك منذ أغلقت الجوائب، يستشري الظلم حين تكمم الأفواه.. ويسود ذلك الجو المشحون بالخطر الذي يحاسب فيه الإنسان على وشاية من خصم، فيودع السجن دون محاكمة حتى يشيب رأسه، فينقذه أن يعتلي الحكم سلطان جديد.. ان سليم فارس ابن الشدياق الذي عهد اليه والده برئاسة تحرير الجوائب ليس مرنا كوالده، ولم تكن علاقته معي كأبيه.. بل أشعرأنه كان يغار من مقالاتي وشعري الذي كنت أزود به الجوائب..
الأسير: كيف حال فارس، وأين أراضيه؟
خالد: شاخ وهرم واحدودب ظهره.. زرته مرة في مصيفه في قاضي كوي ووجدته لا يزال يؤلف ويحرر، وما زال على عهده يحب النكت والألفاظ الساخرة الماجنة..
الأسير: كم كنت أسعد بصحبته وسماع نكاته! لم أعرف الضحك من كل قلبي الاّ برفقته.. غنية أيام لقائي به في دار الجوائب!..

خالد: ان لـه أسلوب فريد فـي التهكم، ولكن الجوائب لم يكن لها ذلك الصيت الذائع في الآفاق الشرقية حتى بلغت الهند وفارس الاّ بفضل المجال الرحب لخيرة الأدباء والعلماء والشعراء الذين يكتبون فيها.. كانت ناديا وملتقى لرجال الفكر على صعيد العالم الإسلامي كله.. هذا ما فقدته يا شيخنا في استنبول، وجئت الى لبنان لأسترده في لسان الحال..

الأسير: سأسلمك رئاسة لسان الحال يا خالد، فأنت أجدر من يتولى هذا المنصب بعدي.. فأنت عشت في استنبول وتعرف الكثير عن سياستها وأحزابها والقوى المتحكمة فيها.. ما الذي يحدث هناك حتى بت تكره البقاء هناك؟

خالد: أعطيك مثالا.. كانوا يقولون عن عبد العزيز أنه مات منتحرا بعد خلعه، ثم يتهمون مدحت باشا باغتياله، ويودعونه السجن مرة أخرى، وهو أبو الدستور، ويغتالونه فيه.. وبهذا يضربون عصفورين بحجر واحد: المنافس والدستور.. يغلقون الجوائب ويكرمون الشدياق.. يحرضون الأكراد على الأرمن، فيثورالأرمن على الأتراك، وتحدث المذابح.. (يدخل ساعي البريد.. يلقي ببريد المجلة على الطاولة.. يتناول خالد رسالة باسمه ويقرأها.. يتجهم وجهه.. يسأله الأسير عما بها؟)

خالد: (بهدوء) انها جلنار تطلب الطلاق!

(2) (منزل الأسير.. حسن في الحمام.. يستعجله الأسير)

الأسير: (بلهجة مذعورة) عجل بالخروج.. وصلتني رسالة من أمك في صيدا.. وباء الإنفلونزا يجتاح بيتنا!

حسن: انني أرتدي ملابسي.. سأخرج في الحال!

الأسير: ربي إصرف البلاء عن بيتي.. أسألك يا الله، يا رب العرش العظيم أن لا تفجعني بأحد من أسرتي.. انهم كل سعادتي في هذه الدنيا، وقلبي لم يعد يحتمل العذاب.. (في الطريق والعربة تسير في أقصى سرعتها) هل هذا الوباء خطير؟ أهناك علاج فعال له؟

حسن: الوباء استشرى في بيروت أيضا، نقله الينا الحجاج من السعودية.. انه خطير حسب بنية الجسد، ينجو منه الناس بمساعدة الأدوية المتاحة ولكنه يهلك البعض.. عسى أن لا نكون قد تأخرنا حتى وصلتنا الرسالة.. الأطباء في مشفى الجامعة استنفروا لمعالجة المرضى..

(3) (صيدا.. ينزل حسن من العربة ومعه حقيبة الأدوية والمعدات وينزل الشيخ خلفه)
الشيخ: (الى حنيفة التي استقبلتهما عند الباب) من المريض في البيت؟
حنيفة: أنا مرضت وشفيت بسرعة، ولكن فاطمة ثقل عليها المرض..
الشيخ: والصغيران؟
حنيفة: لم يصابا.. انهما في رعاية الجيران..
حسن: فعلت الصواب في عزلهما (يسير خلف والدته التي تتقدمه الى غرفة فاطمة.. فاطمة غائبة عن الوعي.. على طاولتها الصغيرة شراب البرتقال لم تذقه.. حرارتها مرتفعة.. حنيفة تضع كمادات الماء المثلج والنشاء على جبينها.. الأسير ينظر الى وجه فاطمة الشاحب وقد زاده النشاء على جبينها شحوبا، ويخيل له أنه يرى وجه فريدة في لحظاتها الأخيرة)
الأسير: انني ذاهب لأتوضأ وأصلي (يخرج والدموع تملأ عينيه)
حسن: (لأمه) لا أستطيع أن أفعل شيئا وهي في حالة الغياب عن الوعي..
حنيفة: أعطني الدواء لأقطره في فمها.. ان الشيخ يفقد عقله لو حدث لها مكروه!
الأسير: (في غرفة حنيفة جالس على سجادة وفي حضنه القرآن، ولكنه لا يرى الكلمات وعيناه مغرورقتان بالدموع) يارب! اجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي.. لا تكلني الى نفسي، وخذ بيدي واجعلني من الصابرين.. لا مردّ لحكمك يارب العالمين ان قدرت لفاطمة أن تغيب من حياتي، أن تموت في ربيع العمر، وأنا أعيش شتاء العمرفي وحدة حتى انتهاء الأجل.. (يسمع صراخ حنيفة في الغرفة المجاورة فينكب على السجادة غارقا بالبكاء)
(4) (مراسم الجنازة.. تخرج صيدا عن بكرة أبيها في جنازتها، ويمتلئ بيت الأسير بالمعزين رجالا ونساءا.. وتعود العربة الى صيدا وفيها حنيفة والصغيرين وحسن والأسير)

* * *